JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ
العدد العاشر
(٣٢٧)- (٣٤٨)

تمثّلات الإثنوغرافيا في رواية نزلاء الحرّاش للحبيب السائح
مقاربة سوسيوثقافية

ا.م.د.شاكر عجيل صاحي الهاشمي
جامعة واسط/ كلية الآداب
salhashimi@uowasit.edu.iq

الملخص:

إنّ هذه المقاربة النقديّة المكثفة تسعى لمعاينة نصٍ روائي حديث، وهو أنموذج فاعل في الرواية الجزائريّة الحديثة، كانت للإثنوغرافيا فيه حضور مميز في تشكيل مشهدها السّردي الابداعي، إذ أدّت عن طريق هذا الحضور وظيفة مركزة في تخصيب المنجز الفني وجعله بموازاة تلك الحياة المصورة، لذا فقد سعت هذه المقاربة إلى تجاوز اطوار التأسيس لهذا المفهوم مكتفية بالمفاهيم الرئيسة من دون الخوض في مفاهيمها الدقيقة الّتي تدخلها بمشتركات متعددة مع علوم أُخر.

حددت المقاربة منذ البدء اتجاهاتها في تناول هذه الثيمة للوصول إلى نتائج تكشف خصوصية هذا التوظيف للإثنوغرافيا عن طريق مبحثين الأول منهما كان سبيلا للتعرف على الثقافات والعادات الظاهرة وهو سبيل يسهم بطبيعة الحال عن الانطباعات والتصورات الفكريّة عن وصف المجتمع عينة البحث لتحديد السلوكيّات والاطر الّتي تحكمه، أما المبحث الاخر فقد خصص لدراسة الانساق المضمرة المخبوءة الّتي لا يصرح بها المجتمع بشكل علني انما تبدو عليه بوساطة افعاله وتصرفاته ازاء ظواهر ومواقف معينة يمر بها الفرد في حياته فتشكّل هويته من دون وعي منه.

الكلمات المفتاحية: تمثّلات، الإثنوغرافيا، سوسيو ثقافي، رواية.

The Representations of Ethnography in The novel Al- Harrach Inmates of Al- Habib Al-Sayeh A Sociocultural approach

Asst. Prof.Dr . Shaker Ajeel Sahi Al-Hashimi
Wasit University/ College of Arts

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

salhashimi@uowasit.edu.iq

Abstract

This intensive critical approach seeks to preview a modern narrative text, which is an effective model in the modern Algerian novel. Ethnography had a distinctive presence in shaping its creative narrative scene. Through this presence, it led a focused function in enriching the artistic achievement and making it parallel with that illsturated life. Therefore, this approach sought to go beyond the stages of establishing this concept, content with the main concepts without delving into its precise concepts that introduce it with multiple joints with other sciences.

From the beginning, the approach has determined its directions in dealing with this theme to reach results that reveal the specificity of this employment of ethnography through two sections, the first of which was a way to identify the apparent cultures and customs. It is a way that naturally contributes to impressions and intellectual perceptions of society's description the sample of research to determine the behaviours and frameworks governing it. The other section was devoted to the study of hidden patterns that society does not publicly declare, but appears to mediate through his actions and behaviours in the direction of certain phenomena and situations experienced by the individual in his life, forming his identity unconsciously.

Keywords: Representations, Ethnography, Sociocultural, Novel

المقدمة:

إنّ هذه المقاربة النقدية المكثفة تسعى لمعاينة نصٍ روائي حديث، وهو أنموذج فاعل في الرواية الجزائريّة الحديثة الّتي أتسمت بالبحث عن الأسفار الحياتيّة المخبوءة والمضمرة على وفق طابع سردي فني عالٍ؛ ولأنها رواية حديثة بالفعل والقوة، فقد تصدت لثيمة مركّزة جداً قادتها لأن تكون ضمن روايات السجون الّتي تستفيض فيها الفواعل الشخصيّة وتتفاعل إلى الدرجة الّتي تجعلها تدور في فلك المكان بلا حدود ولا سدود، فالإثنوغرافيا مجال بحثي غني بالمعرفة، يكتنز بالدلائل الإنسانيّة والفكريّة العامة؛ لذا ارتأينا مقاربة هذا النص على وفق البرنامج الإثنوغرافي الحديث الّذي يتوخى تتبع الشخصيّات من خلالتمثّلاتهاالمتعددة، فمنها ما يكون ظاهراً على سطح النص، ومنها ما يكون مضمراً في عمقه.

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

وتبعاً لهذا التبني النقدي انقادت الرواية في هذا البحث إلى مبحثين اثنين، جاء الأول بعنوان(إثنوغرافيا الظهور "مقاربة الثقافات والعادات والتّقاليد الظاهرة") توخينا فيه البحث في محاورَ ثلاثة: الأول في العادات والتّقاليد وما تحمله من سياقات اجتماعيّة شكّلت جزءاً من وعي المجتمع، وتناول الثاني القيم المجتمعيّة الّتي ترسم حدود التعاملات وتشكّل الصورة السلطويّة العليا، أمّا الثالث فقد خصّ في المرجع الثقافي بوصفه موجهاً ثقافيّاً فكريّاً محدداً، وهذهكلّهامستويات ظاهرة تتجلى في السلوكيات المباشرة للشخصيّات، أما المبحث الثاني فقد جاء بعنوان (إثنوغرافيا الضمور "مقاربة في الأنساق الثقافيّة المضمرة) الّتي تحتّم على البحث التركيز في المنظور البحثي، لمواجهة الأفكار والتقصي عنها بعناية كبيرة، فجاء على محورين، الأول: يقارب الهويّة بوصفها رسالةً خفيّة تتجلى خلف الأبعاد الظاهرة، والثاني: يعنى بالمسكوت عنه الّذي يتوخى نبش الخطابات الفكريّة والأنساق التركيبيّة المضمرة، الّتي تشكّل علامة وجوديّة محددة.

مهاد نظري:

الإثنوغرافيا "المصطلح والحقول المعرفية المشتركة" :

ظلّت الرواية العربيّة الحديثة مركزاً مهماً من مراكز الاستيعاب الفكري والثقافي بوجه عام، فهي تجسّد الحالة الصحيّة لتغير الأنماط الفكريّة لدى الإنسان العربي بشكل خاص، وكلّ من يعيش على الأرض العربيّة بشكل عام، ولأن الرواية تمثيل سردي مباشر تنتقل إليه كلّ الجينات الحياتيّة من خلال أقلام المفكرين والأدباء والكتّاب، يبقى هذا الجنس محوراً سوسيوثقافياً متأصلاً يسعى إلى توظيف هذه القيم الثقافيّة والفكريّة بشكلٍ أو بآخر ضمن حيثيات الجنس السّردي المتشعب الّذي يصور طبيعة الفكر بعلاقاته الإنمائيّة المتشظية.

تمثّل الرواية الجزائريّة حالة فنية متفردة استطاعت أن تنفذ إلى مراتب الرقي والإبداع الفني بالركوز إلى هذه الأبعاد الثقافيّة والسعي الفعلي لتوظيفها في البنى الفنية الروائيّة، ناهيك عن اللغة السّاردة الّتي أخذ الروائيون الجزائريون يراهنون على أسسها التركيبيّة الخاصة الّتي تعطي للغة بعدها الفني الأول "فقد خطت الرواية الجزائريّة المعاصرة خطواتٍ نحو التميز والتطور، فضلاً عن التجدد وكسرت قيود الرواية الكلاسيكية الّتي اعتمدت في وقت مضى على طرقٍ بسيطةٍ، لتنتقل إلى اعتماد وتبني آليات وطرق جديدة تسهم مساهمة فاعلة وإضافة نوعية للمتن الروائي ولصاحبه، وجدت الرواية المعاصرة نفسها مجبرة على التعاطي مع عقول ومعارف ومناهج نقدية والنهل منها، موظفةً إياها في الإبداع الروائي ومن بين العلوم التي احتفت بها الرواية الجزائرية الأثنوغرافيا"(فطيمة، ٢٠٢٢:

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

ص١٤٣) لكن عدداً من الدارسين ظلّ يجهل البعد المفهومي لمصطلح الإثنوغرافيا، فأصبح من الضرورة في مكان الوقوف على الحدّ المفهومي لمصطلح الإثنوغرافيا ومعرفة مدى اتصال هذا الحقل المعرفي بالحقول المعرفيّة الأخر.

إنّ تعدد المفاهيم وتنوعها وامتدادها إلى أكثر من مصدر مقالي لا يعني وجود التضارب والتفارق والتناقض بين تلك المفاهيم الّتي تحاول رسم حدود الإثنوغرافيا فهي محاولات منوعة لرفد المفهوم بالمعلومات والصياغات الفكريّة المنوعة الّتي تثري المفهوم وتحاول أن تجعله أكثر واقعيّة وأكثر موضوعيّة، ومن تلك الإسهامات المهمة ما أشار إليه أحد الدارسين عندما قال إنّالإثنوغرافيا:" أنجع وسيلة لوصف منظومة اجتماعيّة وصفاً دقيقاً شاملا"،(حافظ، ٢٠٠٩: ص١٦)ومن خلال السياقات المدلوليّة لهذا التعريف المبسط نستدل على أن المعطيات الاجتماعيّة المشتركة هي الأس الأول لفكرة الإثنوغرافيا، فهي –الإثنوغرافيا– تطلق على "طائفة من الأعمال سواء تلك الّتي تقوم بملاحظة سلوك الجماعة الاجتماعيّة ملاحظة مباشرة أو تلك الّتي تقوم بملاحظة سلوك الجماعة الاجتماعيّة ملاحظة مباشرة لذلك السلوك"(الجوهري وآخرون، ٢٠٠٧: ص ٧٠، ٧١)، وتلتقي هذه السمة الرئيسة مع الأبعاد الاجتماعيّة الأخرى، الّتي تجعل من الإثنوغرافيا مجالاً بحثياً اجتماعيّاً بامتياز.

من خلال ما تقدّم نفهم أنّ الإثنوغرافيا "وصف تحليلي للمشهد الاجتماعي، والأفراد والجماعات بشكلٍ يؤدي إلى فهم مشاعرهم ومعتقداتهم وممارساتهم كما أنّها دراسة الاستراتيجيات التفاعلية في الحياة الإنسانيّة"(السيد،٢٠١٤: ص ٤٧) فهي حالة من حالات التشخيص المباشر للمشهد الإنساني العام ومحاولة فاعلة لتحديد المسارات الفكريّة والأيديولوجيّة الّتي تبرهن على نسبة التفاعل بين الإنسان عامة وكلّ ما يحيط به بشكل خاص، من هنا نستشف الطابع الاجتماعي الخالص الّذي تحدده الإثنوغرافيا في مجال عملها وطابعها الوجودي الخاص الّذي يؤطر لعلاقة ممتدة إلى حقول معرفية منوعة.

إنّ المجال الإثنوغرافي يراهن على السياق التفاعلي بشكلٍ كبير؛ لأنه امتداد طبيعي للسمة الاجتماعيّة، فهو يتتبع المدى التفاعلي بين التأثير والتأثر لما يمرّ به الإنسان من ظروف خاصة، إذ تقوم الإثنوغرافيا "على افتراض أنّ السلوك الإنساني يتأثر تأثرا كبيراً بالبيئة الّتي يحدث فيها وعليه فالفهم الحقيقي للسلوك يتطلب منّا فهم تلك البيئة أو السياق بصورة متكاملة"، (فطيمة، ٢٠٢٢: ص ١٤٤) ولا شكّ في أنّ هذا التأثير سيولّد فيما بعد سلوكيّات فرديّة وجماعيّة تتجذر في العمق الحياتي لتكوّنَ فيما بعد نمطاً فكريّاً محدداً يشير بشكلٍ أو بآخر إلى الفرد أو الجماعة.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

وما دمنا في معرض الحديث عن السياقات الاجتماعيّة المشتركة الّتي تعتمد على أطر التأثير والتأثر فلابدّ هنا من تحسس طبيعة العلاقة الجدليّة الّتي تربط الإثنوغرافيا بالفن عموماً والأدب على وجه الخصوص، فالفن هو بحدّ ذاته تفاعل جمالي لظاهرة إنسانيّة معينة، أما الأدب فهو تفاعل نصي اجتماعي فكري لظواهر إنسانيّة متعددة، وتبقى الرواية واحدة من أكثر الأجناس الفنية والأدبيّة استجابةً لتمثيل العمق المجتمعي والفكري، فهي نطاق من الحياة المتخيلة الّتي تجد فيها كلّ الأبعاد الفكريّة والاجتماعيّة العامة، وهذه كلّها معطيات إثنوغرافيّة محددة يجد الروائي نفسه منجذباً إلى التعامل معها إذ "يتحول الروائي إلى باحث إثنوغرافي يعمل على جمع المادة الثقافيّة من الميدان ومن المصادر التاريخيّة، ويحبكها بشكل يجعلها نصاً إبداعياً يتراوح مداه بين حدود الواقع وتخوم المتخيل" (بوحوش، ٢٠٢٢: ص ٦٧)، وعليه فإنّ الرواية تستلزم التداخل والتفاعل المباشر مع كلّ هذه المعطيات الفكريّة والوجوديّة؛ لأنّها تتيح التعامل مع الشخوص والأحداث والأمكنة والأزمنة الّتي هي أساس البنية الروائيّة وتتعامل معها على وفق نظام نصّي متكامل، لتبقى الرواية سياقاً نصّياً اجتماعيّاً فكريّاً يعمل بطاقة تدليليّة خاصة تجعله يبرهن على القيم والمعتقدات والأفكار الّتي تحوم حول بناء الشخصيّات والتأكيد على محور تفاعلها مع المجتمع بشكل عام.

ويمكننا القول أيضاً إنّ الإثنوغرافيا "الطريقة الّتي يتعايش فيها الباحث مع المبحوث لفترة من الزمن عن طريق استخدام الملاحظة بالمشاركة والمقابلة، فهذه الطريقة البحثية هي إحدى الطرق الكيفية الّتي تستدعي فيها عمليّة جمع المعلومات الاقتراب أكثر من مجال البحث، والاحتكاك بالمبحوثين في حياتهم اليومية من أجل الحصول على المعلومات والبيانات المطلوبة حتى يستطيع الباحث كتابة تقريره النهائي الّذي يستعرض فيه نتائج المعلومات الّتي جمعها"(خلالفة، ٢٠٢١: ص ٢٩٤) وتأسيساً على هذه الفكرة المباشرة نجد أن الأثنوغرافيا تتغذى بشكلٍ أو بآخر على البليوغرافيا المعلوماتيّة الّتي تستند إلى الجمع بين أصول الأشياء ومسمياتها وسيرورتها التاريخيّة والفكريّة.

بقي أن نعرف حدود الإثنوغرافيا الّتي تمتد إلى مجالات معرفية متعددة منها الأنثروبولوجيا فالإثنوغرافيا تشكّل انطلاقا من سياقها المعرفي والمدلولي جزءاً لا يتجزأ من الأنثروبولوجيا الّتي هي بطبيعة الحال "من أقدم فروع المعرفة في علم الأنثروبولوجيا عندما قام الأوربيون بوصف القبائل والشعوب المحلية في أمريكا وأفريقيا وأستراليا وآسيا حيث وصفوا أدواتهم وعاداتهم وتقاليدهم وكلّ ما يتصل بثقافتهم المادية المختلفة وسرعان ما تبنى الأنثروبولوجيون هذه المعلومات واستخدموها في دراساتهم لتطوير المجتمع البشري، ويرى البعض أن مصطلح الإثنوغرافيا يطلق على الدراسة التي

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

تعتمد على وصف ثقافة ما في مجتمع معين وتعتمد على منهج البحث الوصفي أو منهج الوصف اعتماداً على الملاحظة المباشرة والمشاركة أحياناً، ويوجه عنايته بالثقافات الإنسانيّة والظواهر الاجتماعيّة بالوصف الدقيق، ومن ثم يتم على أساسها تصنيف، وتحليل الثقافات البشرية" (إبراهيم، ٢٠٢٢: ص ٨٢) ومن خلال ما تقدم يمكن الوثوق بصحية العلاقة بين الأنثروبولوجياوالإثنوغرافيا فهي علاقة الانبثاق والتوالد وعلاقة الجزء والكلّ، لذلك تتأسس كلّ المعطيات والأفكار والسياقات الّتي تنطلق منها الإثنوغرافيا من طبيعة علم الأنثروبولوجيا، بدءاً من الثقافة العامة وليس انتهاءً بالقيم والعادات والتّقاليد الّتي ترسم الحدود الثقافيّة والفكريّة لمجتمع ما.

إنّ الإثنوغرافيا مجال بحثي متطور وفاعل في الدراسات الإنسانيّة إلى الدرجة الّتي جعلته اليوم محط عناية الباحثين ومحورًا مهماً من محاور اشتغالهم على النصوص الأدبيّة عامة والسّرديّة على وجه الخصوص، لذلك كانت الرغبة حاضرة وبقوة لمقاربة نصٍ روائي حديث لروائي عربي عُرفَ بتضمينه واتكائه إلى المراجع الثقافيّة والسياقات الفكريّة المضمرة الّتي تشكّل ظاهرة فكريّة سّرديّة واضحة، لذلك كان الموضوع (تمثّلات الإثنوغرافيا في رواية "**نزلاء الحرّاش**" للحبيب السائح مقاربة سوسيوثقافية) لما في الرواية الجزائريّة من إمكانيّة واضحة في تقليب الموروث والاتكاء إلى القيم العامةوالأنساق الثقافيّة المضمرة، فوقع الاختيار على رواية **نزلاء الحرّاش** الّتي كتبها الروائي الجزائري الحبيب السائح لتكون محلّ بحثنا ومقاربتنا في محاولة للكشف عن الأبعاد الإثنوغرافيّة في الرواية العربيّة الحديثة.

المبحث الأول

إثنوغرافيا الظهور

مقاربة الثقافات والعادات الظاهرة

تشكّل الإثنوغرافيا حقلاً معرفياً مستقراً منقسماً على مسارين واضحين، يعتني الأول بكلّ ما له علاقة بالقضايا الإنسانيّة الظاهرة الّتي تسهم في تشكيل الانطباعات الذهنيّة والفكريّة عنه، وهي ما تسمى بـ"إثنوغرافيا الظهور" الّتي أصبحت تقود إلى جملة من المشاهد والظواهر العامة الّتي تتأصل في الحياة الفعلية للإنسان ويمكن ملاحظتها بشكل عفوي سريع من دون الحاجة إلى تركيز الجهد وتحفيز التعمق والتكثيف الذهني للحصول على ما يمكن الحصول عليه كما تبقى الثقافات الظاهرة الّتي تطفو على سطح المجتمع واحدةً من أبرز السياقات الّتي تتجلى في السلوكيات البشريّة، وتسير الإثنوغرافيا في المسار الأكاديمي والبحثي الّذي يتغيا الوصول إلى هذه الثقافات والقيم والعادات

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

والتّقاليد الّتي تظهر على السلوكيّات العامة للمجتمع، "إذ ترتكز الثقافة الإثنوغرافيّة على المظاهر البدائية للثقافة كما تهتم بوصف المظاهر الخارجية للثقافة فتكتفي بوصف الزوايا، العادات والتّقاليد الطابع المتميز للباس الأهالي، وسائل الإنتاج، الأواني، زينة البيت المأكل أي كلّما يتصل بالثقافة الماديّة الّتي يراها (السائح العالم الأنثروبولوجي) فيسجلها مما أدى إلى تشبيهها بالبطاقة البريدية" (بتقة، عن الإنترنيت:www.merabad.org)وثمّة انساق ثقافيّة ظاهرة سنحاول تتبعها في هذا المبحث، إذ إنّها شكّلت طابعاً ثقافياً مميزاً في رواية "نزلاء الحرّاش" للروائي الجزائري الحبيب السائح:

أولا: العادات والتّقاليد:

عُرِّفت العادات في معاجم عربيّة متعددة على أنّها نمط من السلوك أو التصرف المعتاد الّذي يتمّ فعله مراراً وتكراراً من غيرجهد، مثل: عادة التدخين، وعادة الكذب، كما أنّها تتعلّق بحياة البداءة الّتي تعود إلى الجيل الأول من دون تقدّم أو تطوّر فطري، أمّا التّقالِيد فهي عادات وعقائد وأعمال وحضارة الإنسان المتوارَثة الّتي يرثها الخلف عن السلف، ومفردها: تقليد (كرجي، ٢٠٢٠: mawdoo3.com) وتعدّ العادات والتّقاليد وجهاً سلوكياً مهماً من أوجه الإثنوغرافيا، ليس لأنّها وجهاً مهماً من وجوه السلوك الإنساني فحسب؛ بل لأنّها مصدر مهم من مصادر الأنثروبولوجيا الّتي تؤسس للهويّة الإنسانيّة وتحدد إلى مدى بعيد قدرة الإنسان على بناء علاقات قويّة مع البيئة المحيطة، وقد عمدت رواية نزلاء الحرّاش إلى كثير من التمثّلات الّتي تجسّد طبيعة العادات والتّقاليد في طبيعة المجتمع الجزائري ومن ذلك ما جاء في رواية نزلاء الحرّاش "كنت في فراش مرضي بأنفلاونزاشتويّةٍحادّةٍ ليلة قرأت لي أمّي، على نار هذا الكانون، قصّة الأميرة البيضاء والأقزام السبعة، قالت له نبيلة. وتنهّدت. فمسّد بأصابع يمناه على خدّها، فمضت تهمس أنّ المكتبة، وحدها، الّتي تحتلّغرفةً صغيرةً كاملةً، برائحة ورق وغبار ومداد عتيق وعرق أيادٍ جفّ، بدت لها أكثر وجوما من الأشياء المتبقّية الأخرى." (السايح، ٢٠٢١: ص٥٠) يتأسس هذا النص على فرضيّة نصيّة واضحة، يبدأ عبرها باستهلال مباشر يبيّن قيمة مهمة من القيم الّتي تتأسس عليها العادات والتّقاليد القديمة، إنّ ظاهرة القصّ والسّرد والحكايات الشعبيّة الّتي تتزامن مع الأماسي والليالي الشتائيّة الباردة عرف وتقليد مجتمعي قديم، يمثّل دائرة مهمة من دوائر أثنوغرافيا الشعوب، ولعل الشخصيّة الجزائريّة القديمة والحديثة تنمو وتتعاظم بشكل كبير مع فكرة السّرد القصصي فالجزائر بلد الرواية والقصة والسّرد وهم ميّالون إلى تجسيد الحكايات أكثر من اقتفاء القصائد والأشعار على هذا الأساس تعدّ هذه البصمة النصيّة واحدة من أهم المحاور الّتي تظهر القيمة الإثنوغرافية لدى الجزائريين على وجه العموم،

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

وشخصيّة فيصل على وجه الخصوص، الّذي اعتاد على المرابطة على هذا النّمط من السّلوكيّات إلى أنّ تحوّل من طبع وعادة جمعية إلى سياق سلوكي شخصي متلازم، كما يشكّل النصّ السّابق حالة من التّوازي بين بدئه ومنتهاه من حيث تغليب الجانب القرائي والقصصي ولاسيما وأنّه بدأ بالحكاية والقصّ والسّرد، وتوازى مع فكرة الكتب ورائحة الأحبار وانتهى بعرق الأيادي وتناهيد الكتابة، هذا يعني أنّه يدور في حلقة معرفيّة حكائيّة واحدة تتقلم جميعها في إطار دلالي محدد.

إنّ المجتمع الجزائري يغذّي بشكلٍ مباشركلّ العادات والتّقاليد التي يتلقاها الفرد الغريب وهي جزء مهم من الثّقافة المجتمعيّة العامة، ومن تلك العادات الّتي تنتشر في شمال أفريقيا والجزائر على وجه الخصوص، هي شرب الشاي وعدّه طقسا مجتمعياً مهماً، وكذلك ورد ليبيّن الأثر الّذي يفعله من خلال تمازجه مع الأمزجة الشخصيّة العامة، ولن يكون الشاي بمعزل عن الحشيش والمسامرة والأحاديث صامتة والمغامرات الليلية فهي كلّها عرف اعتاد الأصدقاء عليه في خلوتهم "قبل عودتهم إلى الجامعة، في عطلة الصيف القائظة تلك، وهم بإحدى الخيمات في مصيف زرالدة، انتظر فيصل، ذات صباح كما العادة، أن ينهض عليلو الكربوزي وعاطف الورثي ورضا الونشري من نومهم، فقد كانوا سهروا مطولاً على عزف عليلو على الكيثار فاحتسوا الشاي الّذي حضّره عاطف ودخنوا الحشيش الّذي جلبه رضا وتسامروا على مغامراتهم كلّ على ليلاه إلى حدود البوح المحظور من غير أن ينتزع أحد الثلاثة من فيصل سر ليلته تلك مع نبيلة"(السايح، ٢٠٢١: ص٤٣)يشكّل هذا النص علامة دلاليّة واضحة لاستثمار العادات والتّقاليد الدارجة في المتون الروائية، فهذه العادات تتداخل مع أبسط التفاصيل الحياتيّة، ومنها جلسات السمر بين الأقران الّتي ينبغي أن تتخللها تطييب الشاي والحشيش والأحاديث الجانبيّة الأخرى الّتي جرت العادة على تنضيدها معاً، إن هذه العادة المجتمعيّة ولاسيما الشاي منها رابطت المجتمع الجزائري وقد وردت في هذه الرواية غير مرة(السايح، ٢٠٢١: ص٢٩٩)، وتشكّل هذه اللازمة محوراً مهماً من محاور الشخصيّة الجزائريّة الّتي تسحب إلى جانب سلوكها الفعلي العديد من العادات والتّقاليد الخاصة الّتي تشكّل بطبيعة الحالة الثيمة الخاصة للشخصيّة الجزائرية، فضلاً عن ذلك فإن الرافد الخاص بالعادات والتّقاليد يؤسس للثقافة المجتمعيّة التي يتميز بها مجتمع عن آخر، والشاي طقس من طقوس الحياة الأصيلة في الشمال الإفريقي، إلى جانب تعدد أصنافه وتشكّل ألوانه على وفق عادات المجتمع وتقاليده الفاعلة، وما يثبت أن الشاي عرف مجتمعي مهم ما ورد في روايات إبراهيم الكوني من تأسيس سردي كبير على الشاي الأخضر

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

الذي تجسد والتصق بشخصية الطوارق رجال الصحراء، فهي عادة اعتادت عليها المجتمعات على وفق نظام مجتمعي خاص.

إن السّرد ارتبط ارتباطاً وثيقاً مع السمر والليل بشكلٍ خاص، فتجد الحكايات الّتي تتغذى على هذا الوقت من اليوم الّذي تصاحبه الأشربة الدافئة فتنفتح قريحة الجالسين للحكاية والسّرد، وهذه عادة أخرى تضاف إلى الطابع السّردي العام للرواية، فضلا عن ذلك فإن الرواية تلتزم هذه الطوابع السّرديّة الخاصة، وعلى الرغم من ذلك كلّه لم يستطع أقران فيصل من التأثير عليه ومحاولة زحزحته عن التمسك بالإضراب عن البوح بأسراره الخاصة ولاسيما أوقاته الّتي كان يقضيها مع نبيلة، إن الطابع العام للجلسة بما فيها من تبعات كلاميّة وسلوكيّة تفضي على انطباع مجتمعي وسياق متبع نجد الإثنوغرافيا متأقلمة معه إلى أبعد حدّ، فهي تعدّه صورة من صور المجتمع .

ثانيا: القيم المجتمعية:

يمكننا أن نبحث في مفهوم القيم في العقول البشرية العامة فهي تنمو وتتجذر في المخيلات الفكريّة والبيئات المعرفيّة الّتي تساعد على تطويرها وتحاول أنّ تحولها من الافتراض إلى الواقع المعيش، انطلاقا من هذه الفكرة المهمة يمكننا أن نعرّف القيم على أنها"عبارة عن مجموعة من المعايير والأحكام العامة الّتي تتسم نسبياً بالثبات والاستقرار وتتفق والتوجيهات العقدية والأخلاقيّة الّتي يسعى المربون إلى غرسها في وجدان التلاميذ من خلال محتوى الكتب الدراسية وتمثل النموذج الّذي يجب أن تلتزمه الناشئة تحقيقا للأهداف التعليمية المنشودة"(العتيبي، ٢٠١٦: ص ٧) وهذا يعني أن القيم تخضع لفكرة التلقين والتأسيس الفكري والمنهجي، وهي بذلك تكون على تماس مباشر مع النظم التعليميّة والأكاديميّة، كما أن القيم ملمح مهم من ملامح الإثنوغرافيا الّتي توعز الشخص الغريب التحسس إلى المرتكزات القيميّة الّتي يتبناها الشخص بالدرجة الأساس.

وقد حظيت الرواية بعدد كبير من النصوص الّتي تحفل بالقيم المجتمعيّة والإنسانيّة الحرة الّتي يتمّ عبرها التدليل بأساسيات المفاضلة بين الشخصيّات داخل بنية الرواية بين السلب والإيجاب فالقيمة هي الرصيد الفكري والسلوكي الفاعل الّذي تكافح به الشخصيّات ضمور الحياة وانكفائها، ومن تلك النصوص المهمة بيان القيم الأخلاقيّة لفيصل وهو يحتمي بحيائه بعيداً عن كلّ ما يثير نفرته "لم يدخل حجرة نوم والدته، مذ صار يدرك معنى الحرمة إلا مرة واحدة خلال إصابتها الأولى بجلطة دماغية خفيفة، لقد فتحت خزانتها يعني خزانتهما المشتركة هي ووالده، وأخرجت منها سترة محمود الشهباء من الفلانيل مطويةً كما يطوى القميص، ثم استدارت حاملة إياها على ساعديها مثلما

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

يُحملُ علمٌ وطني، فقربتها من وجهها واستنشقتها لثوان مغمضةً عينيها وكأنها في حلم"(السايح، ٢٠٢١: ص١٨ ، ١٩)، يزخر هذا النص بحزمة مركّبة من القيم الإنسانيّة والمجتمعيّة والأخلاقيّة، ففيصل لم يدخل إلى حجرة نوم أمه مذ صار يدرك معنى الحرمة، وهذه قيمة عليا من القيم الأخلاقيّة الّتي تجذرها المجتمعات العربيّة والإسلاميّة وحتى المجتمعات العالميّة الّتي تؤسس لهذا النمط من القيم الحيّة، فلا يبادر أحدٌ للدخول إلى حيث لا يحق له، تحقيقاً للمعادلات الأخلاقيّة الساميّة، وهذا مؤشر مباشر لأن فيصل واحد من الأشخاص الّذين يرتهنون بالسياقات الأخلاقيّة والفكريّة، فضلاً عن ذلك فإن النص يرتكز على قيم مجتمعيّة أخرى تكون أكثر خصوصيّة من سابقاتها وهي خصوصيّة المكان الاجتماعي الّذي يحتفي بالإنسان ويرتكز على خصوصيّة الفكر الحي الّذي يبنى على التفاصيل الدقيقة للحياة مثل الملبس والمأكل، فهنا تحاول أم فيصل أن تسترد جزءاً مهماً من الحياة الّتي مضت من خلال رحيقها الفكري والإنساني.

إنّ القيم المجتمعيّة في هذا النص تنسحب بشكلٍ مباشر إلى القيم الّتي ترتكز وتعنى بالأرض والوطن والوجود، فحب الوطن قيمة عليا ظلت شاخصةً في الأذهان، فقد أشار النص على سبيل المثال القدوة في الاشارة إلى الوطن بوصفه مثالاً للفكر والحياة "مثلما يحمل علم وطني" فالوطن شاخص ومتمثل في الأرواح الّتي ترتكز على القيم الحيّة، بعيداً عن أولئك الّذين يبيعون أوطانهم بأرخص الأثمان، وإذا استمرينا في تمحيص النص والكشف عن قيمه الفكريّة والروحيّة، فسنجد فيه إشارات مباشرة للقيم الروحيّة الأخرى مثل الحنين إلى الذات وإلى الآخر من خلال انطلاق الروح للآخرين فقد أخذت منهم أي مأخذ وهي تبرهن على نقاء الروح ونزوعها إلى الآخرين بوصفهم ملجأً حياً ينقلهم من الموت إلى الحياة.

ولعل الحواريّة الّتي جرت بين فيصل وبين السيد لونيس النقابي المعروف والعضو البارز في التنسيقيّة الوطنية للتغيير والديمقراطيّة من أكثر النصوص تمثلا للقيمة المجتمعيّة في هذه الرواية "كثير من المنخرطين في التنسيقيّة من أجل التغيير والديمقراطيّة تراجعوا أوانسحبوا بعد اغتيال الدكتورة ترْغاس وقبلها استاذ جامعة وهران

- أنت تعتقد، إذاً، أنّ الدولة العميقة ستجهض كلّ محاولةٍ تستهدف تغيير النظام؟
- وأنت تسأل بإجابةٍ. وبرغم ذلك أحبّ أن أؤكّد لك أنّه لا الدولة العميقة ولا عصابة الحكم ستقفان إلى ما لا نهاية أمام إرادة شعب هذا البلد"(السايح، ٢٠٢١: ص٩٨،٩٩)

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

يقف هذا النص شاهداً على حجم الهوة التي تقف بين أقطاب الحراك الشعبي المطالب بتغيير النظام وتعزيز ارادة الشعب، بين فيصل الصحفي الّذي يعرف بحيثيات المطالب الشعبية والسيد لونيس الذي عرف بتشكيكه بكلّ المساعي الّتي تحاول أن تقدم الصورة الجميلة للحياة، ولو تتبعنا النص جيداً لوجدنا أن فيصل يراهن على قيمة مجتمعيّة مهمة وفاعلة من خلال إرادة الشعب الّتي تبحر ضد التيار المضاد وهو تيار العصابات التي تحاول زعزعة الصف الشعبي والدولة العميقة الّتي تحاول أن تقيد مصالح الناس على وفق مصالحها الشخصيّة.

وتمثّل هذا القيمة ثيمة مهمة من الثيمات الشعبية الّتي تعد واحدة من أبرز صور الإثنوغرافيا المجتمعيّة، فهي تعزز فاعليّة التمايز بين الشعوب من خلال حراكيته الحياتيّة الّتي تحاول تفسير قلقه المستمر تجاه السلطة من جهة والإدارة السيئة من جهة أخرى، من هنا جاءت أهمية هذه القيمة الّتي تمثّلت بشخصيّة فيصل وخطابه المنقول من خلال حواراته الشخصيّة مع كلّ الشخصيّات الّتي تفاعل معها داخل بنية الرواية.

ثالثا:المرجع الثقافي:

ترتكز الإثنوغرافيا بشكل كبير إلى المراجع الثقافيّة الّتي تسهم في تأسيس الطوابع الشخصيّة العامة، ويرجع ذلك إلى أن تلك المراجع تسهم بشكلٍ كبير في إعادة هيكلة الهويّة الإنسانيّة وترتيب أولوليات العمل السلوكي وإضفاء الصبغة الثقافيّة العامة لكلّ المحركات الحدثية الّتي تتأسس عليها الرواية سواء كانت في مضمار الأشخاص أو حتى الفضاءات العامة الّتي تتأسس من الأزمنة والأمكنة، فمفهوم المرجعيّة الثقافيّة "شهد التباسا مفاهيميا وقلقاً مصطلحياً منذ ظهوره، وذلك لعله عائد إلى طبيعته المتشعبة، في مجالاتٍ عدّة جعلته لا ينحصر في أفق معرفي ضيق، إذ شغل به العديد من المفكرين والباحثين في تخصصات متباينة، سواء في العلوم الفلسفيّة أو الاجتماعيّة أو الإنسانيّة أو السياسيّة أو التاريخيّة أو غيرها"،(الكعبي، ٢٠٢٠، ص ٩) فالمرجع مرتبط بالأساس بالرجوع إلى الصورة العليا المثلى الّتي ترتسم في ذهنية الإنسان في حقل معرفي معين فهو يراعي فكرة الحقيقة والمثال تلك الفكرة الّتي نادت بها المدرسة الإغريقيّة القديمة المتمثلة بفلسفات سقراط وأفلاطون(الكعبي، ٢٠٢٠، ص ١٣)، فهو يمثل الطابع الحي المثال الّذي تتأسس عليه كلّ النظريات التابعة واللاحقة، فضلاً عن ذلك فإنه يمثل المحور التوجيهي الفاعل الّذي يبرهن على أهمية العمل بمقتضى الإسناد والمراجعة والتنقيح بعيداً عن فرض الأنظمة الوجوديّة التفكيكيّة الّتي لا تقيم علاقة نسقيّة مهمة بين الأشياء بعضها مع بعض.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

إنّ رواية نزلاء الحرّاش متشعبة في أصولها التركيبيّة ولاسيما في حزم الشخصيّات الّتي حضرت بأدوار أدائيّة متعددة، وهذا التعدد يقود افتراضاً إلى تعدد الرؤى والافكار والمرجعيّات والمشارب الثقافيّة في الرواية، ومن الشواهد المهمة الّتي مثّلت صورةً مباشرة للمراجع الثقافيّة ودورها في الرواية ما جاء في الجلسة الخاصة بين فيصل ونبيلة، وهما يتخيلان حجم الفجوة الّتي كانت تفصلهم عن أقرانهم من الأصدقاء الأصوليين "في السرير، وهما في تحرّرهما، تحدّثا لساعاتٍ عن لقائهما الجزافيّ الأوّل في الجامعة، عن نضالهما من أجل حرّيّة التعبير والحرّيّات الفرديّة والجماعيّة، عن تغيير النظام، بشعور أنّهما يضربان برأسيهما على صخرةٍ، وعن جدالهما الساخن مع زملاء لهما من ذوي النزعة الأصوليّة الدينيّة منها والثقافيّة واللغويّة والعرقيّة أيضاً. وكان ذلك لا يفضي غالباً إلّا إلى مواجهاتٍ كلاميةٍ قادحةٍ، قالت نبيلة إنّها كانت تجد الأمر كأنّه مبرمجٌ لتشتيت أيّ إجماعٍ على أدنى فعلٍ يمكن القيام به داخل الجامعة حتّى لا ينتظم الطلبة كقوّة ضغطٍ على توجّهات السلطة السياسيّة."(السايح، ٢٠٢١: ص٢٢٨) يقود هذا النص بوضوح كبير إلى الكشف عن البعد المرجعي الّذي تتكئ عليه الشخصيّات في الرواية، ففيصل ونبيلة على فراش السعادة، راحا يستذكران اللقاء الأول في الجامعة عندما وضعتهم الأقدار في مواجهة دائمة لحزمة من الأشخاص الّذين تجيرهم الثقافات الخاصة وتحاول أن تعبئ أفكارهم بالمواقف المضادة، إن الراوي يصف مرجعياتهم بالنزعة الأصولية والدينيّة ومنها الثقافيّة اللغويّة، فهي من وجهة نظره مراجع ثقافيّة تصب في مصبٍ واحد وتحاول أن تجعل فيصل ونبيلة بمنأى كبير عن السلوكيّات الخاصة الّتي يمران بها في كلّ حين، إن التيارات المرجعيّة داخل الحرم الجامعيّة تتميز بالتقاطب والتضاد في مجمل وجوهها فالطلبة ينقسمون على تيارات ومراجع متضادة بين الأصوليّة الدينيّة الدوكمائيّة واللغويّة الثقافيّة الحادة والغربيّة السلوكيّة المتعاطفة مع الذات والّتي تراعي طروب الهوى، لذلك فإنها تشهد تصادمات فكريّة وأيديولوجيّة متعددة بين الطلبة وأحياناً بين الطلبة والأساتذة كما حصل مع فيصل عندما قادته أفكاره إلى التصادم مع أساتذته الأصوليين في غير مرة.

ومن النصوص البارزة والمهمة في هذا الصدد ماورد لعبدالرزاق كلّال "لم يعترض عبد الرزاق كلّال مستنفراً انتباهه. فواصل الآخر، كما في حديثٍ جوّاني، ربّ الدولة قرأ الميثولوجيا اليونانيّة، ففتنه زيوس. ومن الشخصيّات الإسلاميّة، كلّها تَمثّل الحَجّاج. وفتح ذهنه على الثقافة الرومانيّة، ومثل فتحه على القرآن فخبَله مكيافيلّلي ولذلك كنّ له في صدره غيرةً مستعرةً من فيض الدهاء الذي قيّضته له عنايةٌ – وليس التاريخ – لم تُنعم عليه وهو بحظوةٍ مماثلةٍ طيلة عشرين سنة من

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

حكمه"،(السايح، ٢٠٢١: ص٢٦١،٢٦٠)، يُظهر هذا النص اتكاءً مرجعياً واضحاً عندما يضع عبد الرزاق كلّال موضع الضد وهو يبرهن على تفاقم سياقه المرجعي ولاسيما وأنه معبأ بالثّقافة الإسلاميّة الّتي تتخذ من القرآن الكريم مرجعاً تشريعياً رئيساً إلى جانب السنة النبوية المشرفة، فلا تناط بعبد الرزاق كلّال مهمة المواجهة المباشرة في الميدان السلوكي الفعلي مثلما تجده صارماً في تحديه الثقافي والفكري عندما يتعلل بما يدفعه إلى تبرير كلّ سلوكياته الفعلية الخاصة والعامة، انطلاقاً من تداخل أفكاره واتخاذها سياقاً فكرياً موجهاً، إن ورود المصطلحات الواضحة في النص مثل الميثولوجيا اليونانيّة وزيوس والإسلاميّة والحجّاج والثّقافة الرمانيّة والقرآن وغيرها من المصطلحات التي توحي باتكاء النص وغناه بالمراجع الثقافيّة الواضحة الّتي تسجل تداخلاً مهماً مع الشخصيّات المهمة مثل شخصيّة فيصل ونبيلة وشخصيّة عبدالرزاق كلّال وغيرهم.

إنّ هذا التنوع المرجعي يقود حتماً إلى التنوع السلوكي المباشر، فالأفكار تبني الأفعال، وهي بذلك تكون بصمة شرعيّة وتنفيذيّة في الوقت نفسه، وهذا في صميم العمل الأثنوغرافي الّذي يجسد حالة الإنسان وطرائق عيشه ومناقشة بنات أفكاره وتحولها بين الفينة والأخرى إلى أفعال كلاميّة وسلوكيّة مباشرة، تؤدي مباشرة إلى صناعة الصورة الذهنيّة لشخصيّة الإنسان بين أقرانه، فنحن نستمد الأفكار عن الآخرين من خلال طاقاتهم التشريعيّة والتنفيذيّة، الّتي تتحول إلى سلوكيات مباشرة تترجم الأثر المرجعي والثقافي الّتي تستند إليه، فهي صورة حيّة من صور التأشير الإثنوغرافي الّذي يجسّد الفرق والتمايز بين الشخصيّات المتنوعة في الرواية، إلى جانب تحفيزها لتدعيم ذلك المرجع والمضي نحو تحقيقه صورة فعلية على أرض الواقع.

المبحث الثاني

إثنوغرافيا الضمور

مقاربة فيالأنساق الثقافية المضمرة

إنّ الرواية تعالج مسارين فاعلين، الأول منهما هو ظاهر ومتجلٍ في حين يكون الثاني مضمراً وقد يشكّل الجزء الأكبر من البعد الروائي و "إذا كانت الكتابة القصصية هي مثل جبل الثلج لا يظهر منه إلا جزءٌ بسيط، أما الجزء الأعظم فيظل غير ظاهر، ومغموراً في الماء، فإن الجزء الغاطس أو المغيب في الخطاب الروائي يمثل نصاً غائبا أو موازياً للنص الظاهر، لا يقل أهمية وتأثيراً عن النص المكتوب،(ثامر، ٢٠٠٤: ص٩) على هذا الأساس يمكن التعامل مع النصوص على وفق منظورٍ مركّب متشظٍ إلى مسارين مهمين.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

وتبقى الإثنوغرافيا جزءاً مهماً من الأنثولوجيا فالأخيرة تعني علم الجماعات والثقافات الإثنية وتتمثل الإثنوغرافيا في ملاحظة وتحليل الجماعات الإنسانيّة والبحث عن خصوصيتها والمركّبة والمزدوجة والبحث عن خصوصيّة كلّ فرد من أفرادها من خلال الوصف الدقيق والتركيز المباشر الّذي يفضي إلى نتائج بحثية مباشرة(خلالفة، ٢٠٢١: ص ٢٩٥)، لكن تلك السياقات والأنساق والمعطيات العامة لا يمكن افتراض أنها طافية على السطح في مجمل تفاعلها وبنائها فالكثير منها مختزل ومخبوء ومضمر ويكون بحاجة إلى جهود بحثية وتوصيفيّة مركّزة للوصول إليه، فهو يكشف عن السياقات العامة ويقود للتحول المعرفي من الخاص إلى العام.

إنّ تلك القيم والثقافات المرجعيّة المخبوءة لا يمكن الوصول إليها إلّا بما يعرف بإثنوغرافيا الضمور الّتي تعتني بكلّ ما هو مضمر من قضايا تهمّ الإنسان الّتي لا يمكن معاينتها من خلال استثمار القوى الفكريّة الفاعلة الّتي من شأنها استنهاض كلّ السياقات الثقافيّة المضمرة، وسنتناول في هذا المبحث نقيضتها من الأنساق والثقافات الظاهرة الّتي تشكّل طابعاً حياتياً مميزاً لأمةٍ ما، لنقارب رواية "نزلاء الحرّاش" للروائي الجزائري الحبيب السائح، ولعل الهويّة واحدة من أبرز الملامح الّتي يتطلب الوصول إليها جهداً معرفياً بحثياً مكثفاً فهي مخبوءة ولا تظهر إلى السطح بسرعة بل تحتاج إلى عملية فحص وتدقيق ومتابعة للكشف عنها والتحقق من ماهيتها، فضلاً عن الخطاب الضمني المسكوت عنه الّذي يمثّل جزءا مباشراً من عمل الإثنوغرافيا الّتي تعنى بالسياقات المضمرة إلى جانب السياقات الكليّة الظاهرة.

أولا: الهوية"سوسيولوجيا الضمور"

لا يخفى على احد أن الحديث عن الهويّة بوصفها محدد مهما من محددات الإثنوغرافيا هو حديثٌ عن الثوابت والعقيدة فضلاً عن العادات والتّقاليد والميراث الفكري لمجتمع من المجتمعات،إذ "إن الهوية بناء يتشكل ويتطور كلما دعت الحاجة إلى ذلك وهي سعي مستمر نحو التجديد المثمر والتحول والبناء والإضافة الحقيقية التي تكسبها القوة وتحميها من التلاشي لا سيما بعد أن تحولت في يومنا هذا إلى هدف تهدده رياح العولمة العاتية" (مختاري: ص ٦١) فهو باب خفي لصناعة البلوغرافيا الخاصة بالشخصيات وتعزيز فرادتها وتميزها عن بعضها بعضا، وفي الرواية وردت نصوص متعددة تدور حول تدشين الهويّة منها "وهو على تلك الحال، راح يسمع من الشخص ذاته أنّ مشكلته النفسيّة ليست مع أمّه، لأنّها تعاشر رجالاً يدفعون لها مقابلاً به تضمن له مصاريف دراسته وحاجاته من اللباس والأكل، ولكن مع الدكتورة الّتي بحثت في سيرة عائلته ضمن دراسةٍ

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

اجتماعيّةٍ أعدّتها، على حاسوبها، عن أبناء اليهود الجزائريّين الّذين تخفي عنهم عائلاتُهم أصولَهم. وذلك ما أوصلها إلى حقيقته العرقيّة والدينيّة. وأبدى له أنّ التعاطف الّذي تبديه له الدكتورة، وهو يصل حدّ الشفقة، ليس سوى إحدى وسائل جذبه لتدْرسه كحالةٍ نموذجيّةٍ متميّزةٍ بالاضطراب بسبب فقدانه مرتكزات أصوله ودينه."(السايح، ٢٠٢١: ص٢٠٤) إن هذا النص الّذي تأصل في صالة السجن بين مومن شتوري وعاطف الورثي كان مركّزاً إلى حدّ كبير عندما فتح في نفس شتوري أسئلة متكررة ظلت قابعةً في نفسه، استطاع من خلال تلك المفاتيح الكلاميّة المهمة أن يجسدها وأن يبرهن على صورته الحيّة من خلال رغبته العارمة في الانتقام والتخلي عن قيود السجن وكأنه يحلم بحريته المطلقة، يظل شتوري مستنداً إلى طباعه الشخصيّة التي تشكّل الوجه الحقيقي لهويته وكينونته الدفينة داخل السجن، ظل محوراً مهماً من محاور السجن عندما يتحول بين الفينة والأخرى إلى مركزاً لتحقيق المتهمين، كان يتخيّل نفسه لبرهة من الوقت أنه يعيش وسط مجموعة من رجال المخابرات والعسكر لا بين المساجين، فهو الوحيد الّذي تتكرر الأسئلة حوله، وتنفتح طرائق استجوابه على الأصعدة كلّها، إن شتوري لم يستطع إخفاء ما بداخله عندما ظلت أطراس الكلام بين السجناء تمسه، حول قتل الأستاذة وإفساد حياة من كانت له العون والرجاء، فتدور الدائرة عليه مجدداً.

إنّ هويّة شتوري صورة من صور التحايل الفكري الّتي حاول أقرانه تصويرها له من خلال منافذ ضعفها وتهالكها، فكانت ثغرة العرض الّتي أفضيت إلى تفكير عميق لدى شتوري واحدة من أهم تلك الصور، الّتي ظلت تعيق وعيه واستدامة سلامة فكره، فهي – عارضة الشرف – تتردد على فكره مثل زائر ثقيل مخيف كم تمنى لو أنه أفرغ في رأسه حشوة البارود ليضاعف من بلادة جرمه، إنه وصل إلى المرحلة التي جعلت منه محاطاً بمراكب الضعف والتردي وكأنه يعيش وسط عالمٍ موحش يستهدفه من كلّ جانب.

تتجلى الإثنوغرافيا في هذا الركن الأساس من الرواية في مسارين مهمين، الأول: هو الهويّة الشخصيّة السطحيّة الّتي بدت وكأنها صورة ملصقة على وجه شتوري (جريمته الّتي أودته السجن) فهي محور عناية الآخرين به وطريق مهم من طرائق تسليتهم، والثاني: قد لا يتعلق به شخصياً قدر تعلقه بأمه الّتي بذلت "قصارى جهدها" أملاً في تسديد نفقاته المعيشية، لكنها كانت تغض طرفها عن نوعية ذلك الجهد، فالغاية تبرر الوسيلة، فشكّلت من حيث لا يدري جزءاً مهماً من هويته العميقة واستطاعت أنّ تمرره إلى بر الأمان ويمارس حياته العلمية بشكل بصرف النظر عن الضرائب

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

المستقبلي الّتي من المتوقع أن تظهر في طريقه، فهذان المساران يحفران في عمق الإثنوغرافيا الّتي تتماس بشكل مباشر مع الهوية والعرق، والأصل والديانة، فضلا عن السياقات الحياتية الأخرى.

وفي مناسبة أخرى يراهن الكاتب على ضرورة الاتكاء على الهويّة بوصفها ملمحاً إثنوغرافياً ضمنياً "في سجن الحرّاش، هكذا وصف عاطف الورْثي حاله، لازمه شعورٌ بأنّه لم تعد له شخصيّةٌ ولا هويّةٌ بعد أن حوّلوه رقماً. لا مكان له ولا زمان ولا خيار ولا حيازة ولا وقت ولا مسؤوليّة ولا حقّ ولا واجب، سوى الإذعان! ولا قرار، أيّ قرارٍ يتّخذه أو يمليه. ولا حرّيّة حركةٍ ولا رغبة خارج قوانينه الداخليّة! فيصير عليك، كما قال، إما أن تصمد نفسيّاً، حتّى لا تنهار عصبيّاً فتروح فريسةً لكآبةٍ مزمنةٍ"(السايح، ٢٠٢١: ص٢٠٦)، في هذا النص يمارس المكان سلطة فعلية مباشرة على الهويّة عندما يحاول أن يجسدها تجسيداً جديداً، فعاطف الورثي الّذي تكتنز شخصيته بطابعها المتجدد والباحث عن الذات، استطاع أنّ يؤسس لنفسه هويّة اجتماعيّة خاصة، لكنها بمجرد أن دخل إلى سجن الحرّاش مارس المكان ضده عملية سلخ الهويّة الّتي جاء بها من خارج السجن فاستبدلوا ملابسه بملابس خاصة بالمساجين ونسخوا اسمه برقم خاص وتم تهميشه إلى الدرجة التي جعلته بلا قرار ولا إرادة ولا وعي ولا هدف ولا تفكير، كلّ ذلك صنع من الورثي شخصية جديدة تتقاطع كليّاً مع الشخصيّة الأم الّتي كان قد أسس لها نفسه وحاول أن يبنيها بطابعها التراجيدي الخاص.

قد تبدو المسألة للوهلة الأولى أنه السجن هنا جرد الورثي من هويّته الأصيلة الّتي بناها لنفسه خارج السجن، لكننا لو أمعنا النظر في النص ودققنا فيه أكثر لوجدنا أن السجن لم يمارس عملية النسخ لكنه واصل عملية بناء الهويّة الّتي كان قد بدأها خارج السجن، فعاطف الورثي الّذي كان خارج السجن هو الهيئة والفكر نفسه الّذي كان داخل السجن، وهنا ينبغي أن تتم الإشارة إلى أن الإثنوغرافيا لا تتعامل مع الهويّة المقتضبة الجزئية بل تنظر إلى الهويّة بشكل شمولي موسع، فشكلت هذه الصورة المتأخرة لشخصيّة عاطف الورثي جزءاً مهماً من هويته الشخصيّة الّتي كان قد أسسها على نسق شمولي في الوقت نفسه.

ثانياً: المسكوت عنه :

يرى الكثير من الدارسين المسكوت عنه مصطلحاً عائماً لا يمكن الامساك بخيوطه اللغوية أو الدلاليّة أو الاصطلاحيّة نظراً لتعدد معانيه قديماً وحديثا(خضور، ٢٠٢١: ص٢٩١) غير أنه يمكن أن نستدل بتعريف اصطلاحي واضح يشير إلى المسكوت عنه على أنه جملة من المحظورات الأخلاقيّة، والسياسيّة الّتي يأتيها الأدباء في كتاباتهم، أي الثالوث المحرم الدين الجنس السياسة،

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

ومنهم من سماه التابو أو المحرم عندما يتناول قضايا سياسيّة ودينيّة واجتماعيّة (خضور، ٢٠٢١: ص٢٩١) كما أن المسكوت عنه يمثل جزءاً مهماً من الخطاب الكلي، ولا غرابة إذا قلنا أنه يمثل كبد الخطاب الّذي قد تحجبه الظروف الخاصة وتؤدي إلى عدم البوح، والكشف، وقد تضمنت الرواية حزمة كبيرة من النصوص الخاصة الّتي تمثّلت فيها طاقة المسكوت عنهلشخصيات متعددة منها ما جاء في شخصيّة فيصل "ما الّذي يرغم فيصل، وقد تماثل لمشيئة قدره مع مصير شقيقه محمود، على العودة إلى بدايات حياته الجنسيّة فيكشف شأناً مسكوتاً عنه؛ هذا الي يمرّ به جميع البالغين الحلمَ الأسوياءُ من العادة السرّيّة إلى تذوّق اللذّة الأخرى المذهبة للعقل، المرعشة للبشرة والمزلزلة للجسد مع هذا المخلوق اللغز الذي يسمى امرأةً ؟"(السايح، ٢٠٢١: ص٣٥) يبدأ هذا النص بصيغة السؤال عبر الأداة (ما) ويقترن بشكل مباشر بالكشف عن المخبوء والمسكوت عنه عندما يرتبط بالرغبة الشخصيّة والواعز الجنسي الّذي بدأ يتجدد في جسده من جديد، فهو انقاد لمشيئة قدره وانتحل حياته الجديدة الّتي تخلى فيها عن الكثير من السياقات النفسيّة والجسديّة العامة، لكنها تظهر من خلال تماسها مع الآخر وتجليها للسلوك المباشر أنها ركن أساس من أركان تكوين الشخصيّة وأنها على الرغم من تواريها عن الأنظار العيانية إلّا أنّها ترتسم في محيى الروح وتنتظر الفرصة المناسبة الّتي تظهر من خلالها وتتجلى في الوعي الذاتي والوجداني للشخصيّة، إن هذا المسكوت عنه نحت من السلوك الشخصي لشخصيّة فيصل الّذي فاقت قدرته التخييليّة قدرته الكلاميّة وظل ينفر إلى مخبوئهومكنوزه الجنسي نحو سلطة المرأة الجسدية، ظلت حياته تقترن بالعديد من الإشارات والإشكالات الّتي تنمّط مسارها السلوكي وعلى الرغم من ذلك نجده يرتكز إلى تلك المخيلة الحيّة الّتي تنقذه في الوقت المناسب وتحيله على البنية الفكريّة الّتي يرغب، ويستثمر الروائي تلك الفكرة من خلال تقنيات متعددة مثل الفلاش باك والاسترجاع والمونولوج الشخصي الداخلي الّذي ينقل الشخصيّة ويرسم حدود عالمها الجديد بعيداً عن التنميط والرتابة، وهذه الطاقة المخبوءة تشكّل جانبا حيّاً من جوانب الإثنوغرافيا الفكريّة عندما لا تجد ما تبحث عنه في سلوك الشخصيّة ظاهراً ظهوراً مباشراً إنما ستظل بحاجة دائمة إلى عمليات بحث وتقصي مباشرة للتعرف على الخطاب الخفي والسعي لإظهاره وتحليل أدواته وأفكاره بما يضمن اتفاقه مع السلوك الشخصي العام.

إنّ هذه الرواية اشتملت على عدد كبير من المحاور الدلاليّة في بنية المجتمع الجزائري، فأشارت إلى القضايا السياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة والفكريّة بطرائق سرديّة واعية جسّدت حالة التحسس الّتي لازمت الإنسان الجزائري من خلال عقود خلت "كان ذلك اليوم مفجعاً وقاسياً جدّاً وحزيناً جدّاً. وكانت

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

تلك آخر عطلة صيفيّةٍ تفرّقوا في نهايتها. وكانت عشر سنين مرّت على الحادثة كما يقول فيصل، لّما وقف على قبر عليلو الكرْبوزيفأخبره أنّ الدنيا الّتي رحل عنها لم يتغيّر فيها شيءٌ سوى ما تخلّفه الحماقات الطائفيّة والدينيّة والسياسيّة من تمزّقٍ مشرقاً ومغرباً"(السايح، ٢٠٢١: ص٤٥)تلتزم الرواية نسقاً دلاليّاً محدداً يحاول أن يجذر لمسارين مهمين الأول: يقود إلى الخطاب الظاهر الّذي يطفو على السطح ويمكن الاستدلال عليه من خلال ما تبوح به شخصيات الرواية وأحداثها ومتغيراتها، أما الثاني فهو يتمثل في الخطاب الخفي والمسكوت عنه الّذي يحاول الكاتب أن يبرهن عليه من خلال مرتكزات النص وأطراسه ومفاتيحه المركّزة، وتكمن قيمة هذا النص السابق في قدرته على الإشارة إلى ذلك الخطاب الخفي فقد تركّزت في نفس فيصل العديد من المتراكمات الخاصة، إنه يشير بشكل مباشر إلى حالة المحيط الّتي صنعتها أيدي التغيير من خلال عشر سنوات مضت عندما عصفت الظروف السياسيّة والدينيّة والطائفية بالمجتمع الجزائري، فهو استثمر طاقته في المعاينة والتشخيص في إرجاء التردي الحاصل في المجتمع إلى نخر جسده من خلال هذه النواحي المعروفة، لكنه لم يبادر إلى فكّهذه الالغاز المعقدة في دائرة المجتمع، فالجزائر من خلال كلّ سياقات هذه الرواية ترتهن إلى صراعات طائفية حسبما ترد في متن الرواية ولاسيما بين أشكال وألوان المجتمع الجزائري، ومضمرات تتعلق بالبنى الدينيّة الّتي غير الكثير من السلوكيات داخل بنية الرواية بين المسلمين من جهة واليهود من جهة ثانية، ناهيك عن الظروف السياسيّة الخانقة الّتي عصفت في البلاد خلال تلك الفترة العصيبة.

كان الكاتب قد أشار صراحةً إلى تلك الثغرات الجليّة، الّتي لا يبادر إلى مناقشتها وتحليل خطاباتها أحد من مثقفي السلطة أو المجتمع فأصبحت في سياق المخبوء أو المضمر أو المسكوت عنه، فشكّلت بذلك معلما مهماً من معالم الأثنوغرافيا الفكرية العامة، تلك الحالة جسّدت الرغبة الفكريّة الحادة الّتي أرادت الشخصية من خلالها أن ترتهن إلى ذلك الندب الفاعلة في جسد المجتمع الجزائري، فهي محاور تدليلية مهمة لكنها عصيّة ومحاطة بأحراش كثيرة يبتعد عنها الكثيرون لأسباب تتعلق بشكل مباشر بالرسم الشخصيّة والطابع المجتمعي العام والكثير من الظروف السياسية والأمنية العامة.

الخاتمة :

قد خلصت هذه المعاينة النقدية إلى حزمة من النتائج البحثية نجملها فيالآتي:

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد العاشر
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

- في الوقت الذي تشهد الدراسات النصيّة الاجتماعيّة الثقافية حراكاً واضحاً، حاولت هذه الدراسة أن ترسم حدود مفهوم الإثنوغرافيا بوصفها مجالاً بحثياً مهماً متمثّلا في الرواية العربيّة الحديثة والرواية الجزائرية على وجه الخصوص، فقد كانت رواية (نزلاء الحرّاش) مثالا لهذا الحراك، إذ إنها رواية يغلب عليها سرد السجون، فكانت الشخصيّات فيها محوراً مهماً للفضاء السّردي العام من حيث البحث في سياقاتها الفكرية الظاهرة، وأنساقها النفسيّة المضمرة التي تدخلها في صميم مجال الإثنوغرافيا.
- غلب على النص الروائي المدروس الاتكاء على الماضي وتوظيف تقنيات المفارقة للانتقال بالحدث من نقطة السّرد الآني إلى السّرد المفارق عطفاً على ركون المكان واستقراره في بنية فضائيّة واحدة، ففتحت هذه الديناميّة التي صنعتها المفارقة المجال أمام البحث في التركيب الإثنوغرافي للشخصيّات للتعرف على البنية الاجتماعيّة والسياقيّة، والتحقق من الخطابات الظاهرة والمضمرة التي تتعلق بخصوصيّة الشخصيّة الجزائريّة.
- ظلت العادات والتّقاليد محوراً مهماً من محاور التوجيه السلوكي للشخصيّات على الرغم من تعاظم سلطة المكان سواء داخل السجن أو خارجه، فهي تلعب دوراً مهماً ولاسيما الشخصيّات التي تنحدر من بيئات اجتماعيّة غير مركزيّة، جعلتها تتكئ والسياقات الخاصة التي تتوازى مع المنظومة القيميّة للمجتمع.
- لم تغادر هذ الرواية مؤشرات القيمة المجتمعيّة في حال مقارنتها مع العادات والتّقاليد أو التعاليم القانونيّة الخاصة، فقد حجّمت حساسيّة المكان في الرواية امتثال الشخصيّات أمام القيم المجتمعيّة.
- مررت أغلب شخصيّات ولاسيما فيصل ونبيلة وعاطف الورثي سلوكياتها بتفعيل دالة المرجع الثقافي الّذي صار فيما بعد محركاً سياقيا أثّر بشكلٍ واضح على مستوى فواعل الشخصيّات الّتي تنوّعت بين الفاعلة والخاملة.
- تجسّدت الأبعاد الإثنوغرافية في رواية "نزلاء الحرّاش" بشكلٍ واضح في تحسس مستوى الإظهار والإضمار من خلال جسّ نبض النص ووضع اليد على المسكوت عنه والتحقق من الماهيّة والهويّة.

- هذه الرواية غنية جداً بالتماثل الإثنوغرافي الّذي جسدته من خلال أنساقها المضمرة، ولاسيما في تقديم بعض الشخصيّات الفاعلة إطفائها على سطح المشهد السّردي، ليتم تسليط الضوء عليها بوصفها ركناً خفياً مهماً تتكئ عليه بنيّة الرواية.

المصادر والمراجع:

١- الإثنوغرافيا من العالم الواقعي إلى العالم الافتراضي، زينب خلالفة، مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي، المجلد الثامن، العدد الأول، ٢٠٢١.

٢- الإثنوغرافياوالأنساق الثقافيّة في الرواية الجزائريّة رواية الذروة لربيعة جلطي، براهمي فطيمة، مجلة المرتقي، المجلد الخامس ، العدد الأول، مارس ٢٠٢٢.

٣- الإثنوغرافيا وتجليات الأنساق الثقافية المضمرة في رواية (ليل البلاد) للروائي جنان جاسم حلاوي، عبدالخالق كاظم إبراهيم و فرامرزميرزائي، مجلة المرتقي، المجلد الخامس، العدد الأول، ٢٠٢٢.

٤- الأدب الإثنوغرافي في الجزائر المستعمرة، سليم بتقة، جامعة جيجل الجزائر، عن الإنترنيت: www.merabad.org.

٥- إشكالية الهوية وصراع الأنا والآخر في الرواية النسائية العربية، فاطمة مختاري، مجلة الباحث، العدد ١، المجلد ١١.

٦- ترجمة الثّقافة الإثنوغرافية في روايتي مولد فرعون والدروب الشاقة، رسالة ماجستير، كهينة حورية حافظ، بإشراف الطيب بودربال، جامعة منتوري، قسنطينة، ٢٠٠٩.

٧- تعريف العادات والتقاليد، فداء كراجي، منتدى موضوع، ١٣/ ٤/ ٢٠٢٠، عن الإنترنيت: mawdoo3.com

٨- القيم الأخلاقيّة المتضمنة في كتب السراج المنير للمرحلة الابتدائية في دولة الكويت، رسالة ماجستير، جابر مبارك العتيبي، بإشراف: أحمد محمد الدويري، جامعة آل البيت، كلية العلوم التربوية، ٢٠١٦.

٩- المرجعيّة الثّقافيّة في الخطاب الروائي في قطر روايتا غصن أعوج وشو shu لأحمد عبدالملك أنموذجاً، عفيفه منادي الكعبي، رسالة ماجستير، إشراف: د. عبدالحق بلعابد، كلية الآداب والعلوم، جامعة قطر، ٢٠٢٠.

١٠- المسكوت عنه في رواية مضاجعة الموت للروائية فاطمة خضور، فاضل حمد مكوار، مجلة اللغة العربيّة وآدابها، العدد (٣٤)، ٢٠٢١.

١١- المقموع والمسكوت عنه في السّرد العربي، فاضل ثامر، دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة الأولى، دمشق، ٢٠٠٤.

١٢- الملمح الإثنوغرافي في رواية كامارد رفيق الحفيف والضياع، هدى بوحوش، مجلة المرتقي، المجلد الخامس، العدد الأول، ٢٠٢٢.

١٣- مناهج البحث، عبدالرحمن السيد، عالم الكتب، مصر، ٢٠١٤.

١٤- موسوعة علم الاجتماع، جوردن مارشل، ترجمة: محمد الجوهري وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة، مصر، ٢٠٠٧.

١٥- نزلاء الحرّاش، الحبيب السائح، دار ضمة للنشر والتوزيع، دار مسكلياني للنشر والتوزيع، تونس، ٢٠٢١.

١٦- هويّة الآخر قراءة في خطاب المثاقفة والإيديولوجيا حكاية العربي الأخير ٢٠٨٤ نموذجا" مجلة آفاق علمية مجلد ٩ العدد ٢، ٢٠١٧.

مجلة العلوم الاساسية
للعلوم التربوية والنفسية وطرائق التدريس للعلوم الاساسية